أشعرية الإمام السنوسي من خلال كتابه

- مكمل إكمال إكمال المعلم -

الدكتور عمر مبركي

مؤسسة دار الحديث الحسنية - المغرب

مقدمة:

يعتبر محمد بن يوسف السنوسي التلمساني (ت 895 هـ) أحد الأعلام الذين كان لهم دور بارز في نشر المذهب الأشعري والذود عنه في ربوع الغرب الإسلامي. وقد خلف رحمه الله مصنفات كثيرة في العقائد وغيرها، منها: "العقيدة الكبرى"، و"العقيدة الصغرى"، و"مختصر علم المنطق"، و"شرح الأجرومية"...

ومن مؤلفاته أيضا كتابه الجليل "مكمل إكمال إكمال المعلم". الذي هو اختصار لمعظم ما في كتاب الأبي "إكمال الإكمال" من الفوائد مع زيادات وإضافات للمؤلف.

وعلى الرغم من أن كتاب "مكمل إكمال المعلم" للسنوسي في شرح الحديث، إلا أن صاحبه نثر فيه طائفة من الفوائد والتقريرات العقدية، التي تجلي مرجعيته الأشعرية ومنهجه العقدي الذي يصدر منه في كثير من مسائل الاعتقاد.

ويهدف هذا البحث إلى التعريف بهذا الكتاب وصاحبه، وبيان الفوائد العقدية التي تضمنها، والكشف عن عناصر المرجعية الأشعرية فيه. وقد جعلته في مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة. فأما المبحث الأول فخصصته للتعريف بالإمام السنوسي وكتابه "المكمل"، وجعلت الثاني للكلام عن منهج الإمام في إثبات الوجود الإلهي، وخصصت الثالث للحديث عن منهجه في الصفات الإلهية، وأفردت الرابع لبيان منهجه في حقيقة الإيمان ومرتكب الكبيرة، وأما الخامس فأفردته للحديث عن رأيه في بعض المسائل المتعلقة بأفعال الله تعالى.

وختتمت بحثي بخاتمة أخص فيها أهم النتائج والتوصيات التي انتهت إليها.

المبحث الأول: الإمام السنوسي وكتابه "إكمال المكمل"

أولا - تعريف بالإمام السنوسي:

أ - اسمه ونسبه:

هو الإمام العلامة الحجة أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي التلمساني الحسني، نسبة للحسن بن أبي طالب رضي الله عنه من جهة أمه، عالم تلمسان وفاضلها وصالحها، العلامة المتكلم المتفنن، شيخ العلماء والزهاد والأساتذة العباد، الجامع بين العلم والعمل. ولد بتلمسان سنة 830 هـ وتوفي بها سنة 895 هـ رحمه الله¹.

¹ - ينظر، طبقات الحضيكي: 321/1. فهرس الفهارس للكتاني: 998/2. الأعلام للزركشي: 154/7. معجم المؤلفين لكحالة: 132/12.

ب - طلبه للعلم وشيوخه:

شرح السنوسي منذ صباه في طلب العلم، فقرأ القرآن على والده الشيخ يوسف بن عمر بن شعيب الحسني، ثم أقبل على مجالس علماء عصره للنهل من معينهم، فحظي بالتلمذ على الأفاضل منهم، مما كان له أثر كبير في توجيهه نحو الارتقاء إلى أعلى مراتب العلم. وفيما يلي بعض هؤلاء العلماء الذين تتلمذ عليهم الإمام رحمه الله:

- العلامة الشيخ أبو الحسن بن علي بن محمد بن علي، القرشي، البسطي، المالكي، الشهير بالقلصادي، الصالح، الرحالة، المؤلف، عالم مبرز في الفرائض والحساب، وآخر من له التأليف الكثيرة من أئمة الأندلس. ولد سنة (815 هـ) وتوفي سنة (891 هـ) بباجة تونس. قال عنه المقرئ في نفع الطيب: "وكفاه فخرا أن الإمام السنوسي صاحب العقائد، أخذ عنه جملة من الفرائض والحساب، وأجازته جميع مروياته"¹.

- العلامة نصر الزواوي التلمساني: قال الماللي: (كان عالماً محققاً زاهداً عابداً ولياً صالحاً ناصحاً، من أكابر تلاميذ الإمام ابن مرزوق، أخذ عنه السنوسي كثيراً من العربية، ولازمه كثيراً)².

- الشيخ علي بن حمد التالوتي الأنصاري، أبو الحسن: هو أخو الإمام لأمه. قال الماللي: "شيخنا الفقيه الحافظ المتقن المتفني العالم الصالح. كان محققاً، يحفظ الرسالة و تسهيل ابن مالك وفرعي ابن الحاجب و يستحضره بين عينيه، و غيرها. قل أن ترى مثله حافظاً. قرأ عليه أخوه السنوسي الرسالة. من أكابر أصحاب الحسن أبركان. ما رأيت قط مشتغلاً بما لا يعنيه، بل إما ذاكراً أو قارئاً أو يطالع أو نحوه". توفي سنة 895 هـ"³.

- الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم بن توزت، وقيل: تومرت: فقيه من كبار المالكية في عصره، كان عالماً في العلوم العقلية والنقلية والحساب، والفرائض، والأوقاف، والخط والهندسة. أخذ عنه الإمام السنوسي الفرائض والحساب، وأثنى عليه، فقال: "وما رأيت قط نظر في كتاب إلا مرة واحدة أشكلت عليه مسألة هندسية فنظر فيها كتب كثيرة أياماً، فلم يجدها. فقال: هكذا تعبت نفسي بالمطالعة، فتركها، وتدبر المسألة بعقله حتى أتقنها، وكان شيخاً حسن الأخلاق، سليم الصدر"⁴.

- أبو القاسم الكناشي البجائي: قال الماللي: "كان إماماً عالماً صالحاً ورعاً، أخذ عنه السنوسي التوحيد، وقرأ عليه هو وأخوه التالوتي الإرشاد"⁵.

- الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى التلمساني الشهير بالحباك، المتوفى سنة 867 هـ: فقيه مبرز في الفرائض والفلك، من علماء المالكية، ولد ونشأ بتلمسان. له مصنفات، منها: "بغية الطلاب في علم الاسطرلاب"، "شرح التلمسانية في

¹ - ينظر، نفع الطيب للمقرئ: 692/2. الأعلام للزركشي: 10/5.

² - ينظر، كفاية المحتاج للتبكي: 273/2. طبقات الحضيكي: 321/1، 94/2.

³ - ينظر، كفاية المحتاج للتبكي: 283/1، 284.

⁴ - ينظر، نيل الابتهاج للتبكي: 553. البستان: 237. معجم أعلام الجزائر: 81.

⁵ - كفاية المحتاج للتبكي: 16/2.

- محمد بن أبي الفضل بن سعيد بن سعد التلمساني، المتوفى سنة 901 هـ بمصر: الفقيه العالم المحصل، أخذ عن الإمام ابن العباس، والتنسي، والسنوسي، وألف النجم الثاقب فيما للأولياء من المناقب، في سفرين، وروضة النسرین في مناقب الأربعة الصالحين¹.
- محمد بن أبي مدين، التلمساني: أخذ عن الإمام السنوسي. قال أبو عبد الله بن العباس: (شيخنا كان علامة فاضلاً، أحى علوم الشريعة، علم الأعلام، حاز قصب السبق معقولاً ومنقولاً، سيما علم الكلام، بل المعقول بأسره، تفقّهت عليه في كتب شيخه السنوسي وفي تلخيص المفتاح وصحيح البخاري. اهـ. وكان حياً قرب العشرين وتسعمائة، وقيل توفي سنة 915 هـ².
- إبراهيم بن أحمد الفيحجي: الشريف، الرحالة، المحدث، الناظم، له كتاب في الديانات سماه المفيد، لقي بتلمسان جماعة من العلماء الأفاضل، منهم: السنوسي وابن مرزوق، والعقباني، والتنسي³.
- العلامة أحمد بن محمد بن محمد بن مرزوق، ولد الإمام ابن مرزوق الكفيف، وحفيد الإمام ابن مرزوق المشهور بالحفيد، عالم فاضل صالح من أهل تلمسان، أخذ عن والده الكفيف، وعن السنوسي وابن زكري وغيرهم⁴.
- الفقيه سيدي أحمد بن محمد بن يحيى، المعروف بابن جيدة، المديوني، الوهراني، المالكي. الشيخ الفقيه الموحد، كان رحمه الله يدرس علم الكلام بفاس، وكان من أهل العلم والفضل والدين، أخذ عن فقهاء وهران وتلمسان، كالشيخ أبي عبد الله السنوسي، سمع منه مقدمته الصغرى في العقائد لما قدم الشيخ على وهران لزيارة سيدي إبراهيم التازي، توفي سنة 951 هـ⁵.
- محمد بن إبراهيم بن عمر بن علي، أبو عبد الله المالبي: عالم، فاضل، نسبته إلى بني ملال بالمغرب. من تلاميذ الإمام محمد بن يوسف السنوسي، صنف في مناقبه: "المواهب القدوسية في المناقب السنوسية". توفي سنة 898 هـ⁶.
- الإمام أبو العباس زروق هو الفقيه العارف المحدث الرحال الصوفي الفقيه أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي دارا الشهير بزروق، العارف المحدث الرحال الصوفي الفقيه، المتوفى سنة 899 هـ و له تواليف كثيرة مختصرة محررة محققة مفيدة كشرح الرسالة، و شرح الإرشاد، و شرح مواضع من مختصر خليل، و شرح القرطبية، و الوغليسية، و الغافقية، و العقيدة القدسية للغزالي، و نيف و عشرون شرحاً على حكم ابن عطاء الله، و شرح حقائق المقرئ⁷.
- محمد بن علي بن أبي الشرف التلمساني، الشريف الحسني: أخذ عن الإمام السنوسي، والعلامة ابن غازي، وألف "المنهل الأصفي في شرح ألفاظ الشفا"، كان حياً في حدود 920 هـ⁸.

1 - ينظر، كفاية المحتاج للتبكي: 228/2.

2 - ينظر، كفاية المحتاج للتبكي: 236/2. طبقات الحضيكي: 344/1.

3 - ينظر، معجم المؤلفين: 8/1.

4 - ينظر، نيل الابتهاج للتبكي: 136. تعريف الخلف للديسي: 149/1.

5 - ينظر، معجم أعلام الجزائر لنويهض: 114.

6 - ينظر، الأعلام للزركلي: 301/5.

7 - ينظر، نيل الابتهاج للتبكي: 131. البستان للمديوني: 47. كفاية المحتاج للتبكي: 57/1.

8 - ينظر، كفاية المحتاج للتبكي: 241/2.

هـ - مصنفاته:

خلف الإمام السنوسي مؤلفات ذات قيمة كبيرة في علوم متنوعة¹، لا سيما في التوحيد الذي برع فيه.. فقد كان جل وقته مصروفًا إلى العلم، إما تدريسا أو تأليفا. فغزارة علمه وكثرة اطلاعه على كتب العلماء، وإتقانه للعلوم المختلفة، كل ذلك ساعده على سبك مؤلفات ذات أهمية كبيرة، يعتبر بعضها مرجعا في بابها.. ونحن هنا سنقتصر على أهم ما صنفه الإمام في علم العقيدة²:

- أم البراهين المسمى بالعقيدة السنوسية الصغرى: تطرق في هذا المتن إلى أقسام الحكم العقلي (الوجوب، والاستحالة، والجواز). وبين أن الواجب على كل مكلف شرعا أن يعرف ما يجب في حق مولانا عز وجل وما يستحيل وما يجوز، ومثل ذلك في حق الرسل عليهم السلام. ثم فصل في أقسام الصفات الإلهية. وختم عقيدته بشرح كلمة الشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- شرح أم البراهين وهو شرح للصغرى.
- عقيدة أهل التوحيد والتسديد المخرجة من ظلمات الجهل وربقة التقليد، المرغمة أنف كل مبتدع عنيد. وتسمى العقيدة الكبرى، أو كبرى السنوسي.
- عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد، وهو شرح للعقيدة السنوسية الكبرى.
- الحقائق في تعريفات مصطلحات علماء الكلام.
- شرح المقدمات في التوحيد: وقد ذكره بعض أصحاب التراجم باسم "المقدمات". وهو متن صغير، وضعه السنوسي لطلبة العلم ليتمرنوا به على الخوض في الأمهات. وعدد مقدمات هذا الكتاب ثمانية: الأولى في الأحكام، والثانية في المذاهب، والثالثة في أنواع الشرك، والرابعة في أصول الفكر والبدع، والخامسة في الموجودات، والسادسة في الممكنات، والسابعة في الصفات، والثامنة في الأمانة في حق الرسل. من حواشيه: حاشية الشيخ حمزة التارزي، وحاشية الشيخ محمد بن علي الغرياني.
- المنهج السديد في شرح كفاية المرید، وهو شرح للامية المسماة: "الجزائرية في العقائد الإيمانية" لشهاب الدين أبي العباس الجزائري الزواوي، المتوفى سنة (884 هـ).
- شرح نظم العقائد لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان الحوضي، التلمساني، المتوفى سنة (910 هـ).

¹ - للإمام مصنفاً كثيرة في علوم متنوعة، منها: تعليق على ابن الحاجب، حظ النقاب عن وجوه أعمال الحساب، شرح أبيات الإمام الليبري، شرح التعريف في علم التصريف، شرح الشاطبية الكبرى، شرح صحيح البخاري، شرح قصيدة الحباك في الاسطرلاب، شرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياسمين، شرح الوغليسية، عقد الجمان اللامع في قعر بحر الجامع، العقود والقوانين في النحو، مختصر حاشية الفتازاني على الكشاف، مختصر بغية السالك في أشرف المسالك، المختصر في علم المنطق، المختصر في القراءات السبع، المقرب المستوفى شرح الحوفية، نصرته الشرفاء، نصرته الفقير في الرد على أبي حسن الصغير، شرح جمل الخونجي في المنطق، تفسير سورة ص وما بعدها من السور، شرح الأجرومية، مجربات في الطب، شرح ايساغوجي المنطق، شرح قصيدة الحباك في الاسطرلاب.. ينظر، كفاية المحتاج للتبكي: 221/2، فهرس الفهارس للكتاني: 998/2. معجم المؤلفين: 132/12.

² - ينظر، طبقات الحضيكي: 328/1. كفاية المحتاج للتبكي: 221/2، فهرس الفهارس للكتاني: 998/2، معجم المؤلفين لكحالة: 132/12.

- شرح جواهر العلوم في علم الكلام.
- شرح كلمتي الشهادة.
- شرح الأسماء الحسنى في كراسين...

د - أثر الإمام السنوسي في من بعده من العلماء:

كان للإمام السنوسي رحمه الله أثر بين في العلماء الذين جاؤوا بعده، خاصة الذين اشتغلوا منهم بعلمي الكلام والمنطق، وهما العلمان اللذان برعا فيهما السنوسي وارتقى فيهما إلى مرتبة الإمامة. ولم يقتصر أثر الإمام رحمه الله على أفراد العلماء، بل أثر بما لا نزاع فيه في الدرس الكلامي عامة. ومما يدل على ذلك، ما يلي:

➤ أن مؤلفاته حظيت باهتمام العلماء، فألفوا حولها شروحا وحواشي كثيرة، ومن هؤلاء:

- محمد بن المبارك الهشتوكي الدرقاوي، المتوفى سنة 1313 هـ، له "شرح صغرى السنوسي"¹.
- ياسين بن زيد الدين بن أبي بكر بن عليم الحمصي، الشهير بالعلمي، ولد بجمص، وتوفي بمصر سنة (1061 هـ). له "حاشية على شرح السنوسي على صغراه"².
- إيبيورك بن عبد الله بن يعقوب السملالي الجزولي، ولد سنة (1026 هـ) وتوفي سنة (1058 هـ). له "شرح صغرى السنوسي"³.
- أحمد الجوهري، الخالدي، الشافعي المصري، المتوفى سنة 1182 هـ. له: "هداية الراشدين المسترشدين لحل شرح السنوسي على أم البراهين"⁴.
- أحمد بن محمد بن أحمد بن قاسم بن محمد البوني، التميمي، توفي بعد (1112 هـ). من مؤلفاته: "نظم عقيدة السنوسي السادسة وشرحها"⁵.
- أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن الحاج، المتوفى سنة 930 هـ. له "نظم عقيدة السنوسي الصغرى"⁶.
- علي بن عبد الصادق العبادي المالكي، أبو الحسن، ولد بطرابلس الغرب، توفي سنة (1138 هـ). له: "شرح الصغرى لمحمد السنوسي"⁷.
- محمد بن الحسن بن يوسف الصالحي، أبو عبد الله، ولد بعد سنة 950 هـ. له: "شرح عقدة السنوسي"⁸.

¹ - الأعلام للزركلي: 18/7.

² - نفسه: 130/8.

³ - نفسه: 133/8.

⁴ - معجم المؤلفين لكحالة: 185/1.

⁵ - نفسه: 75/2.

⁶ - نفسه: 151/2.

⁷ - نفسه: 122/7.

⁸ - نفسه: 229/9.

- أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد أبو العباس، المقري، التلمساني المالكي. له "حاشية شرح أم البراهين"¹.
- إبراهيم بن محمد بن أحمد الباجوري الأزهرى الشافعي، المتوفى سنة (1277 هـ)، له: "حاشية على أم البراهين والعقائد للسنوسي"².
- أحمد بن محمد بن علي شهاب الدين الغنيمي الأنصاري الخزرجي المصري، المتوفى سنة (1044 هـ). له: "بمجة الناظرين في محاسن أم البراهين"³.
- علي بن بري السوداني، المتوفى سنة (1073 هـ). له: "شرح على أم البراهين"، نحو 40 كراساً⁴.
- عيسى بن عبد الرحمن، أبو مهدي الرجرجي السكتاني، مفتي مراکش وعالمها، المتوفى سنة 1062 هـ. له: "حاشية على شرح أم البراهين للسنوسي"⁵.
- محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، المتوفى سنة 1230 هـ. له: "حاشية على شرح السنوسي لمقدمته أم البراهين"⁶.
- محمد بن موسى بن محمد الحسيني الحجازي المالكي، المتوفى سنة 1015 هـ. نظم أم البراهين للسنوسي بأرجوزة سماها: "الحجة في الكلام"، في نحو 220 بيتاً. أولها: قال محمد الحجازي الحمد لله على المفاز⁷.
- محمد بن موسى بن محمد الحجازي الحسيني المالكي، المتوفى سنة 1065 هـ له: "نظم أم البراهين" للسنوسي⁸.

¹ - خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحي: 320/1.

² - الأعلام للزركلي: 71/1.

³ - نفسه: 238/1.

⁴ - نفسه: 265/4. معجم المؤلفين لكحالة: 43/7.

⁵ - الأعلام للزركلي: 104/5. معجم المؤلفين لكحالة: 301/1.

⁶ - الأعلام للزركلي: 17/6. معجم المؤلفين: 292/8.

⁷ - الأعلام للزركلي: 129/7.

⁸ - نفسه: 129/7.

- يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الله أبو زكرياء الملياني الجزائري، المتوفى سنة 1096 هـ. له "حاشية على شرح أم البراهين" للسنوسي¹.
- أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف المجيري، القاهري، الأزهري، الشهير بالملوي، له: "حاشية على شرح القيرواني على متن السنوسية أم البراهين في التوحيد"².
- أبو السعود بن علي الزين، المكي، المالكي، المعروف بالقسطلاني، المتوفى سنة 1033 هـ من مؤلفاته: "الفتح المبين في شرح أم البراهين"³.
- أحمد الطيب بن محمد الصالح بن سليمان العيساوي، الزواوي، المالكي، المتوفى سنة 1251 هـ. له: "شرح على أم البراهين"⁴.

➤ أنه رحمه الله بذل جهداً معتبراً في تقريب العقيدة الأشعرية لجماهير المسلمين، فألف رحمه الله عقائد صغيرة الحجم، لكنها جامعة لكل ما يلزم المؤمن الاعتقاد به، فقد انتهج رحمه في عقيدته المشهورة ب"أم البراهين" منهجاً يتسم بالبساطة والبعد عن التعقيد، وقد كتب الله لها الذيوع والانتشار حتى صارت تدرس في المدارس والجموع، وتلقن للصغار والكبار، وتحفظ عن ظهر قلب، فكان لها أثر بالغ في القلوب والعقول لم يكتب لعقيدة قبلها.

➤ كان للإمام السنوسي رحمه الله أثر واضح أيضاً في النهوض بالدراسات العقلية عامة والكلامية خاصة، في الغرب الإسلامي، فموقفه المعروف من نبد التقليد في مسائل الاعتقاد جعل هم الناس تتطلع إلى أعمال الفكر وممارسة النظر العقلي، وجعل المعرفة الكلامية متاحة لعامة الناس، مما أسهم في تجديد الدرس الكلامي وتطويره.

ثانياً - التعريف بكتاب "مكمل إكمال المعلم":

يعتبر هذا الكتاب تلخيصاً لمعظم ما في كتاب "إكمال الإكمال" للأبي من الفوائد، مع زيادات وإضافات للمؤلف. قال السنوسي مبيناً الغرض من تأليفه: "أردت أن أتعلق بأذيال القوم، وإن كنت في غاية البعد منهم، إلا أن يمن الوهاب تعالى باللحاق بهم بعد اليوم، فاختصرت في هذا التقييد المبارك إن شاء الله تعالى معظم ما في هذا الشرح الجامع من الفوائد، وضممت إليه كثيراً مما أغفله مما هو كالضروري لا كالتزوائد، وأكملته بشرح الخطبة فتم النفع، والحمد لله تعالى بشرح جميع الكتاب، وجاء بفضل الله تعالى مختصراً يقنع، أو يغني عن جميع الشروح وما فيها من تطويل أو مزيد إطناب، فهو جدير إن شاء الله تعالى أن يسمى لذلك بمكمل إكمال الإكمال، ومقربه على الضعيف ومريد الحاجة دون المسافات الطوال، والله أسأل أن ينفع به دنيا وأخرى، ويجعله من صالحات الأعمال"⁵.

ومن أهم ما تميز به هذا الكتاب، ما يلي:

- 1 - الأعلام للزركلي: 169/8.
- 2 - معجم المؤلفين لكحالة: 278/1.
- 3 - نفسه: 218/4.
- 4 - معجم أعلام الجزائر لنويهض: 161.
- 5 - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 3/1.

- أن صاحبه شرح فيه مقدمة صحيح الإمام مسلم، وهو ما لم يفعله الأبي رحمه الله، وقد عاب عليه السنوسي ذلك، قائلاً: "رحم الله الشيخ الأبي ونفع به، لقد كان حقه أن يعتني بشرح المقدمة التي احتوت على علوم ومشكل أسماء ولغات تحتاج إلى شرح وضبط، أكثر من اعتنائه بشرح التراجم، لأنها ليست من وضع مسلم، ولأنها غنية عن الشروح غالباً، فتكميل الفائدة بشرح المقدمة كان أولى"¹.
- أنه عبارة عن موسوعة مختصرة، استوعبت ما تفرق في شروح صحيح مسلم كإكمال المعلم للقاضي عياض (544 هـ)، والمفهم بشرح تلخيص صحيح مسلم لأحمد بن عمر القرطبي (656 هـ)، والمنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج للإمام النووي (676 هـ)، وإكمال الإكمال للأبي (827 هـ)، وقد صدق الإمام السنوسي رحمه الله لما قرر أن كتابه هذا يقنع ويغني عن جميع الشروح وما فيها من تطويل أو مزيد إطناب.
- أما من الناحية العقديّة، فقد تميز منهج الإمام السنوسي في كتابه هذا، بما يلي:
- انتصاره لآراء الأشاعرة في مسائل الاعتقاد. كمسألة حقيقة الكذب²، ومسألة الوجوب على الله هل بالعقل أم بالشرع؟³، ومسألة التكليف بما لا يطاق⁴.
- التوسع في مناقشة المخالفين ومحاجتهم، والرد على مذاهبهم، ومن ذلك:
- رده على الروافض القائلين بالرجعة، قال: "...ومعنى إيمانه بالرجعة، وما تقوله الرافضة أن علياً رضي الله عنه في السحاب، فلا تخرج مع من يخرج من ولده حتى ينادي من السماء أن أخرجوا معه. وهذا من عظيم جهالاتهم، وما يليق بعقولهم السخيفة"⁵.
- رده على المعتزلة القائلين بأن العبد يخرع أفعاله على جهة الاختيار. قال: "...ومن هذا الصنف، ما تقوله المعتزلة، ويعتقده أكثر من جهل علم التوحيد من المسلمين أن العبد يخرع أفعاله الاختيارية من حركة وسكون ونحوهما بقدره خلقها الله تعالى له وأمره أن لا يتصرف بما فيما نهاه عنه..."⁶.
- حرصه على ضبط الألفاظ والمصطلحات العقديّة. وهو في ذلك يرجع إلى ما قرره علماء الكلام ممن سبقوه، كما أنه يعتمد على كتب اللغة. من ذلك:
- بيانه لمعنى القضاء والقدر، ووجه الفرق بينهما. قال: "إن القضاء عبارة عن جميع الكائنات كلها في اللوح المحفوظ، والقدر عن إيجادها شيئاً فشيئاً، وقيل عكسه"⁷.

¹ - نفسه: 3/1.

² - نفسه: 71/3.

³ - مكمل إكمال إكمال المعلم: 78/3.

⁴ - نفسه: 276/1.

⁵ - نفسه: 30/1.

⁶ - نفسه: 19/6.

⁷ - نفسه: 65/1.

- بيانه لمعنى الرجعة. قال: " (الرجعة) هو بفتح الراء، قال: الأزهري وغيره لا يجوز فيها إلا الفتح، وأما رجعة المرأة المطلقة ففيها لغتان: الكسر والفتح. قال القاضي عياض: وحكى في هذه الرجعة التي كان يؤمن بها جابر الكسر أيضا.."¹.

➤ تعقيباته الدقيقة وردوده القيمة على التقريرات العقديّة للعلماء الذين سبقوه، كالقاضي عياض، والنووي، والأبي، والقرطبي، والسهيلي، وابن الحاجب، وابن عرفة.. ومن أمثلة ذلك:

- أن القاضي عياض رحمه الله، قال: "وليس عذاب قتلة عيسى ويحيى بن زكرياء عليهما السلام وغيرهم من الأنبياء كغيرهم من الكفار". قال السنوسي معقبا: "وما ذكره عياض من قتل عيسى عليه السلام وهم، والصحيح أنه لم يمت"².

- تعقيبه على ما نقله إمام الحرمين عن والده أبي محمد الجويني من أن المتعمد للكذب على رسول الله كافر. قال - أي السنوسي -: "وهو بعيد"³.

- رده على الأبي في مواطن كثيرة، فقد رد عليه مثلا في حكايته الإجماع على كفر من نفى الصفات المعنوية. قال: "فما حكاها الأبي من الإجماع على كفر من نفى الصفات المعنوية غير صحيح، بل الإجماع على عدم كفره، إلا أن يريد بالصفات المعنوية مجرد إثبات أحكام الصفات المعاني لذاته تعالى من غير اعتبار كونها صفات ثبوتية قائمة بالذات فيقرب، إلا أنه خلاف المصطلح"⁴.

- ورد عليه كذلك في قوله أنه "لا يشترط في داخل الإسلام النطق بلفظة أشهد ولا التعبير بالنفي والإثبات. فلو قال: الله واحد، ومحمد رسول الله كفى"⁵. قال السنوسي: في قوله (أي الأبي): لا يشترط في داخل الإسلام التعبير بالنفي والإثبات نظر، لأن المحل محل تعبد، فلا يعدل عما نص عليه الشرع، حتى قال بعض العلماء: من قدم أو أحر في كلمتي الشهادة، فقال مثلا: محمد رسول الله، لا إله إلا الله، لم يقبل منه..⁶

➤ توسعه في ذكر الأقوال المختلفة في المسألة العقديّة الواحدة، والموازنة بينها، ثم يختار بنظره الثاقب ما تطمئن إليه نفسه، ويراه صوابا. ومن أمثلة ذلك:

- ذكره لأقوال العلماء في المقصود ب "محبة الله تعالى لعبده". فذكر قول القاضي عياض، وملخصه أن المحبة ميل، والله عز وجل يتنزه عن أن يميل أو يمال إليه. وأعقب ذلك بذكر قول الأبي وخلاصته أنه "لا يمتنع تفسير محبة الله تعالى بالميل حقيقة، لأن الذي يتنزه الله سبحانه، إنما هو الميل إليه في الحس لإشعاره بالجهة والمكان، وليست المحبة في

¹ - نفسه: 30/1.

² - مكمل إكمال إكمال المعلم: 376/1.

³ - نفسه: 17/1.

⁴ - نفسه: 368، 367/4.

⁵ - نفسه: 117/1.

⁶ - نفسه.

الحس، وإنما هي ميل القلب إلى الشيء إشارة له، ولا يمتنع تعلق ذلك به تعالى كما يتعلق به العلم الآن والرؤية في الآخرة..¹. وبعد أن ذكر السنوسي الأقوال التي ذكرناها، عمد إلى إرجاعها إلى أصولها، ثم اختار ما يراه صوابا. قال: "ما سلكه القاضي عياض، هو مذهب إمام الحرمين، وما سلكه الأبي هو مختار المقترح، وهو التحقيق"².

- ذكره للاختلاف الحاصل في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الإسراء.. فبعد أن أورد الأقوال الأربعة في المسألة المذكورة، قرر أن الصواب منها، هو أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه. قال: "فجملة ما في المسألة أربعة أقوال، وأصحها، أنه رأى ربه"³.

¹ - إكمال إكمال المعلم للأبي: 143/1.

² - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 143/1.

³ - نفسه: 327/1.

المبحث الثاني: منهج الإمام السنوسي في إثبات الوجود الإلهي

أولاً: مسالك إثبات الوجود الإلهي عند الإمام السنوسي

إن الناظر فيما سطره السنوسي في "المكمل"، وهو يعرض لبعض المسائل التي لها تعلق بالذات الإلهية، رغم قلتها، يستطيع أن يلمس شغفه بالعقليات، وتوسعه في المناقشات الكلامية، على نحو يدل على امتلاكه ناصية الجدل، وتمكنه من فنون النظر وطرائق المجادلة وأساليب الاستدلال.

والناظر في مصنفاته العقدية، ك"أم البراهين"، و"عقيدته الصغرى"، و"عقيدته الكبرى"، وشروحهما.. يجده قد سلك طرائق متنوعة، ومسالك مختلفة للاستدلال على وجود الباري تعالى، منها: دليل الحدوث، ودليل العناية، ودليل البدهة.. لكنه في "المكمل" اقتصر على ذكر بعض هذه الطرق دون بعضها، كما أنه أشار إليها على سبيل الإجمال لا التفصيل. وسبب هذا الاقتصاد بين واضح.. يتجلى في أن الغاية التي من أجلها ألف السنوسي كتابه هذا هو شرح أحاديث صحيح مسلم، وليس استيعاب مقالات المتكلمين وأدلتهم.

ورغم أن هذا الكتاب - عمدة هذه الدراسة - ليس كتاب كلام كما بينا آنفاً، إلا أن صاحبه أورد فيه باختصار بعض مسالك الاستدلال على وجود الله تعالى، ومنها:

➤ إبطال التسلسل:

التسلسل في عرف أهل اللغة، هو: ترتيب أمور غير متناهية. وفي عرف أهل الكلام، هو: ترتيب العلل لا إلى نهاية¹. وقد استدلل الإمام السنوسي رحمه الله على وجود الله تعالى بهذا الطريق، فنص على أن تسلسل الأحداث إلى ما لا نهاية له محال.. فتتبع الأسباب وما سببها، وما ترتب عنها لا بد أن يفضي إلى حد، يكون هو الأصل، أو هو سبب الأسباب، أو العلة الأولى، أو خالق الأسباب.

قال مبينا هذا المسلك: "لو جوزنا حوادث لا أول لها ففي ضمنه علل ومعلولات لا تتناهي، وبيانه أن كل حادث لا بد له من علة وعلته إما حادثة أو قديمة، وعلة قديمة لمعلول حادث محال، وإن كان حادثة افتقرت إلى علة أخرى ولا يصح الوقوف على علة قديمة لامتناع أن يكون معلولها حادثاً"².

➤ إبطال فعل الطباع:

المقصود بإبطال فعل الطباع، أن الموجودات التي تعرض لها الحياة والموت، لا يمكن أن تكون فاعلة لنفسها ولا لغيرها، مما يدل على أن محدثاً أحدثها.

وقد بين الباقلاني صورة هذا الدليل، بقوله: "ويدل على صحة ما ذكرنا إن الموجودات لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها، أنا وجدنا منها الموت والأعراض، أعني الجمادات التي لا حياة فيها، لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها، ولا لغيرها، لأن من شرط الفاعل أن يكون حياً، قادراً، فبطل كونها محدثة لنفسها، بل لها محدث أحدثها"¹.

¹ - ينظر: التعريفات للجرجاني: 57. الكليات للكفوي: 293.

² - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 240/1.

وقد توسل السنوسي بهذا المسلك في إثباته لوجود الله تعالى، قال رحمه الله: "الأعراض لا تفعل شيئاً في نفسها، ولا في غيرها، وأن وقوع المسببات عقب أسبابها، إنما هو بفعل الله تعالى وإرادته لا بإيجاد سبب ولا باقتضاء طبيعته، وكونها لا تقضى إلا مع أسبابها إنما هو بما أجرى الله سبحانه هنا سببا في الحياة الكاملة، وما ذلك إلا أن الله سبحانه لم يرد الموت، وهذا خلاف ما تقوله الفلاسفة، ومن ضاهاها من المعتزلة"².

ثانياً - معرفة الله تعالى عند الإمام السنوسي بين التقليد والنظر العقلي:

اختلف الأشاعرة في معرفة الله تعالى هل تحصل بمجرد التقليد أم لا بد من النظر العقلي، إلى فريقين:

➤ الفريق الأول: ذهب إلى أن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر والاستدلال، ومن هذا المنطلق قالوا بعدم جواز التقليد المجرد في

مسائل أصول الدين، وبوجوب النظر والاستدلال.. ومن قال بهذا القول: الباقلاني والإيجي وغيرهما.

فقد نص الباقلاني في الإنصاف على أن "الواجب على المكلف: أن يعرف بدء الأوائل والمقدمات التي لا يتم له النظر في معرفة الله عز وجل وحقيقة توحيده، وما هو عليه من صفاته التي بان بها عن خلقه، وما لأجل حصوله عليها استحق أن يعبد بالطاعة دون عباده"³.

وذهب الإيجي إلى وجوب النظر الذي يتحصل به معرفة الله تعالى، قال: "النظر في معرفة الله تعالى، أي لأجل تحصيلها واجب إجماعاً منا ومن المعتزلة، وأما معرفته تعالى فواجبة إجماعاً من الأمة"⁴.

➤ أما الفريق الثاني: فأنكر أن يكون النظر والاستدلال هو الطريق الوحيد لمعرفة الله تعالى، فالأدلة على وجود الله تعالى لا تنحصر في دليل بعينه، ولا في طريقة بعينها، ولذلك اعتبروا إيمان المقلد صحيح، لأن المطلوب في الإيمان هو التصديق الجازم الذي لا ريب به كيفما حصل، ولو كان عن تقليد محض. وقد ذهب إلى هذا القول طائفة من الأشاعرة منهم: ابن العربي، والغزالي رحمهم الله.

فقد نص ابن العربي رحمه الله على أن معرفة الله لا يشترط فيه النظر والاستدلال، فعند شرحه لحديث الجارية، قال: "وقوله صلى الله عليه وسلم: (أعتقها) يقتضي أن الإيمان يحصل بالإقرار، وإن لم يقترن به نظر واستدلال"⁵.

وقال الإمام الغزالي: "ليس يجب على كافة الخلق إلا التصديق الجزم وتطهير القلب من الريب والشك في الإيمان، وإنما تصير إزالة الشك فرض عين في حق من اعتراه الشك"⁶.

وبين السنوسي في كتابه (المكمل) منهجه في هذه المسألة، فنص على أن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا بالنظر

والاستدلال. قال: "وهل يصح (أي الإيمان)، إذا كان تابعا بمحض التقليد أو لا؟ قولان. والأصح منها الثاني، والله أعلم"¹.

¹ - الإنصاف للباقلاني: 30.

² - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 312/1.

³ - الإنصاف للباقلاني: 13.

⁴ - المواقف لعضد الدين الإيجي: 147/1.

⁵ - المسالك لابن العربي: 519/6.

⁶ - الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: 33.

وله رحمه الله في (المكمل) كلام شديد في المقلدين الذين فرطوا في معرفة فنون النظر، وقصروا في إتقان ما هو ضروري من علم التوحيد. فعند شرحه لحديث: (فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم! فيقولون: نعوذ بالله منك! هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه...) ²، قال: "...وهذا آخر الفتن، يتميز بها من حسنت عقيدته في التوحيد ومن لا. ولا ينجو منها إلا من أتقن ما يحتاج إليه من علم التوحيد في الدنيا وعرف ما يجب في حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل. قال ابن دهان في شرح الإرشاد: ولا ينجو من هذه الفتنة إلا من لم يرض لعقائده الصحيحة حرفة التقليد، حتى إنه حمل المنافقين المذكورين في الحديث في قوله: (ويبقى في هذه الأمة منافقوها)، لأنهم أظهروا بألسنتهم ما لم يعلموه في قلوبهم. قلت: والمصيبة على هذا عظيمة على عامة المؤمنين، وعلى كثير من المتفقهين، نسأله سبحانه أن يعامل جميع المؤمنين بلطفه الجميل، والذي ينبغي للعاقل أن لا يعامل نفسه إلا بالحزم والاحتياط، ويجهد في تحصيل العلم النافع، ولا يغتر حتى يفوته الأمر، ولا حول ولا قوة إلا بالله" ³.

وقال في موضع آخر: "...أما من اعتقد التجسيم ونحوه، ومات عليه من عامة المؤمنين، فإنه لا ينجو من شر هذه الفتنة ويهلك مع المالكين، إلا أن يغفر الله تعالى، هذا كله إذا قلنا إيمان المقلد صحيح، وأما إن قلنا بعدمه، فيكون البعض الذي كاد أن ينقلب هو من عرف العقائد بأدلتها، لكن لم يكن له رسوخ في الإحاطة بوجودها، ودفع الشبه الواردة عليها، وبالجملة، فإتقان علم التوحيد عدة عظيمة لكل هول من أهوال الآخرة، والله المستعان" ⁴.

ولعل ما ينبغي التنبيه إليه هنا، هو أن المراد بالدليل الذي تجب معرفته على جميع المكلفين في نظر السنوسي، هو الحد الضروري من الدليل. ولا يشترط معرفة النظر على طريقة المتكلمين من تحرير الأدلة وترتيبها..

¹ - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 67/1.

² - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم: 18.

³ - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 337/1.

⁴ - نفسه: 343/1.

المبحث الثالث: منهج الإمام السنوسي في الصفات الإلهية

لم يبين الإمام السنوسي رحمه الله في كتابه "المكمل" منهجه في الصفات الإلهية كلها، بل اقتصر على تلك التي ورد ذكرها في الأحاديث التي تناولها بالشرح والبيان.. وقد عمد رحمه الله، على عادة الأشاعرة، إلى تأويل الصفات التي يدل ظاهرها على الجسمية والتحيز والحلول. ومنها:

أ - صفة النظر:

وردت نصوص كثيرة في الكتاب والسنة تثبت صفة النظر لله تعالى، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم: (لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء)¹.

وقد تأول الإمام السنوسي هذه الصفة وصرفها عن ظاهرها، وذكر أن المقصود بالنظر الوارد في هذا الحديث هو الرحمة والإحسان. قال رحمه الله: "لا ينظر الله إليه: أي لا ينظر إليه نظر رحمة. قلت: قال الطيبي: البطر الطغيان عند النعمة وطول الغنى، ومعنى لا ينظر الله إليه لا يرحمه ولا يلتفت إليه"².

ب - صفة الغضب:

وردت هذه الصفة في آيات وأحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة المعروف: (إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله..³).

وقد صرف الإمام السنوسي رحمه الله هذه الصفة عن ظاهرها، لاعتقاده باستحالة اتصاف الله تعالى بالغضب كما يتصف به المخلوقون، لأن الغضب في المخلوق عبارة عن تغير الحال وتجدده، والله جل اسمه يتعالى عن التغير واختلاف الحال. قال رحمه الله: "غضبه تعالى هو انتقامه من المغضوب عليه بتعديبه فيرجع إلى صفة الفعل أو إرادته الانتقام فيرجع إلى صفة الذات، إذ إرادته لجميع الكائنات من عذاب وغيره صفة قديمة من صفات ذاته يستحيل عليها التجدد أو طرؤء العدم، والمعنى أن ما يخلق الله سبحانه من أنواع الانتقام في ذلك اليوم لم يخلقه قبل ولا يخلقه بعد، لا أن ذاته في ذلك اليوم تتغير أو تتجدد له صفة لم تكن، تعالى الله أن تتجدد له صفة أو تنعدم"⁴.

ج - صفتا الضحك والسخرية:

تأول السنوسي رحمه الله صفتي الضحك والسخرية المنسوبتين لله تعالى، وحملهما على خلاف ظاهرهما، لأنهما لا تكونان من الله تعالى على ما هو من البشر، فالله تعالى ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء ولا يشبه الأشياء، وبين أن المقصود بالضحك الوارد في الأحاديث هو الرحمة بالعباد والرفقة بهم، وأن السخرية المذكورة فيها إنما ترد على سبيل المقابلة والمجاز. قال: "قوله: (أتسخر

¹ - صحيح البخاري: كتاب اللباس، باب قوله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) الأعراف 32، رقم: 5783.

² - مكمل إكمال إكمال المعلم: 385، 384/5.

³ - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم: 327.

⁴ - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 364، 363/1.

(بي)¹، قلت: قد تقدم تفسير الضحك بما يستحيل به نسبته إلى الله تعالى عز وجل، والسخرية أيضا كذلك، وإنما صح نسبتها إليه سبحانه في القرآن على المقابلة لنسبتهم إليه².

وقال في موضع آخر: "قوله: (أتسخر بي): السخرية سفه وهو على الله تعالى محال، وإنما جاءت في القرآن على سبيل المقابلة"³.

د - صفة اليد:

جاءت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة بإثبات اليد لله عز وجل، قال تعالى: (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء)⁴، وقال أيضا: (بل يده مبسوطان ينفق كيف يشاء)⁵. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)⁶.

وقد منع الإمام السنوسي رحمه الله على حمل "اليد" المنسوبة إلى الله تعالى على ظاهرها، لأن إثبات اليد لله تعالى بمعنى الجارحة مستحيل في حقه عز وجل، وحملها رحمه الله على النعمة والقدرة والملك. فعند شرحه للحديث الذي ورد فيه: (غرست كرامتهم بيدي..)⁷، قال: "اليد بمعنى الجارحة، ثم يوقف عن تعيين ما يليق منها لتعددده، وقيل: يحمل على النعمة والقدرة والملك.."⁸.

المبحث الرابع: منهج الإمام السنوسي في الإيمان ومرتكب الكبيرة

أولا - حقيقة الإيمان:

اتفق أهل اللغة على أن الإيمان لغة هو: "التصديق".

قال الجوهري: "الإيمان: هو التصديق.. والله تعالى المؤمن، لأنه آمن عباده أن يظلمهم.. والأمن ضد الخوف"⁹.

وقال ابن منظور: "الإيمان: ضد الكفر. والإيمان بمعنى التصديق، وضده التكذيب"¹⁰.

¹ - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجا، رقم: 186.

² - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 348/1.

³ - نفسه.

⁴ - سورة آل عمران، آية 72.

⁵ - سورة المائدة، آية 66.

⁶ - صحيح مسلم: كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، رقم: 31.

⁷ - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم 312.

⁸ - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 350/1.

⁹ - الصحاح للجوهري: 2071/5.

¹⁰ - لسان العرب لابن منظور: 21/13.

أما الإيمان شرعا، فقد توسع الخلاف فيه بين أهل السنة، بل وبين الأشاعرة أنفسهم. فقد ذهب بعضهم إلى أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى¹. وذهب آخرون إلى أن الإيمان عبارة عن التصديق بالله وصفاته وما جاءت به أنبيأؤه ورسالاته². وقيل: الإيمان هو العلم بالله تعالى³. .. إلا أن جمهور الأشاعرة على أن الإيمان هو التصديق⁴.

وقد سار الإمام السنوسي رحمه الله في تعريفه للإيمان وفق ما عليه جمهور الأشاعرة. حيث نص على أن الإيمان هو التصديق.

فعند شرحه لحديث جبريل الذي جاء فيه: (أن تؤمن بالله)⁵، قال: " (وأن تؤمن بالله) أي : تصدق تصديقا تابعا للمعرفة بوجود الله تعالى وبما يجب له وما يجوز وما يستحيل"⁶.

ثانيا: مسألة مرتكب الكبيرة

هذه المسألة من أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الفرق المنتسبة إلى ملة الإسلام. وقد أجمع أهل السنة على أن مرتكب الكبيرة ما لم يكن مستحلا لها، مؤمن، لكنه ناقص الإيمان بقدر ما ارتكب من المعصية، فلا ينفون عنه الإيمان أصلا، ولا يثبتون له الإيمان كاملا، وإنما يقولون هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته⁷.

وقد نص السنوسي على هذا، وبين أن المؤمن العاصي ليس كافرا، وإنما هو فاسق بكبيرته التي ارتكبها، كما أنه لا يخلد في النار، وهو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

فعند شرحه لحديث: (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)⁸. قال: "ومعنى الحديث أن هذا جزاؤه، إلا أن يعفو الله، ثم إن جوزي بالنار فلا يخلد فيها"⁹.

وتطبيقا للقاعدة المقررة عند أهل السنة كافة، من أن العاصي المؤمن لا يخرج بمعصيته عن اسم المؤمن، عمد السنوسي إلى توجيه الأحاديث الشريفة، التي تدل بظاهرها على تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار. ومن هذه الأحاديث:

➤ قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من) ¹⁰: فظاهر هذا الحديث يدل على أن من ارتكب فعل النميمة لن يدخل الجنة، ولذلك عمد السنوسي إلى توجيهه، قائلا: "يحمل على المستحل، أو لا يدخلها ابتداء"¹.

¹ - حكاة الإيجي في المواقف: 707/3.

² - غاية المرام للآمدي: 268.

³ - حكاة ابن فورك في المجرى عن أبي الحسن الأشعري: 16.

⁴ - ينظر، العقيدة النظامية للجويني: 257. الإنصاف للباقلاني: 25.

⁵ - صحيح البخاري: باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: 50.

⁶ - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 67/1.

⁷ - ينظر، أصول السنة للحميدي: 43، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي: 299/3. الإنصاف للباقلاني: 51. لوامع الأنوار للسفاريني: 368/1.

⁸ - صحيح مسلم: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم: 1291.

⁹ - مكمل إكمال إكمال المعلم: 17/1.

¹⁰ - صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، رقم: 168.

➤ قوله صلى الله عليه وسلم: (من حمل علينا السلاح فليس منا)²، فظاهر هذا الحديث يدل على أن من قاتل أخاه المسلم فهو خارج دائرة الإيمان، وقد وجهه السنوسي، بقوله: "ومعناه عند أهل العلم: ليس ممن اهتدى بهدينا، واقتدى بعلمنا وحسن طريقتنا، كما يقول الرجل لولده إذا لم يرضى فعله: لست مني، وهذا يقال في كل الأحاديث الواردة بنحو ذلك"³.

المبحث الخامس: منهج الإمام السنوسي في أفعال الله تعالى

أولا - التكليف بما لا يطاق:

تكليف ما لا يطاق على وجهين:

أحدهما: ما لا يقدر على فعله لاستحالته وهو نوعان:

أ - ما هو ممتنع عادة كالمشي على الوجه والطيران، والمقعد الذي لا يقدر على القيام، والأخرس الذي لا يقدر على الكلام.

ب - ما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين، وجعل المحدث قديما، والقديم محدثا، ونحو ذلك..

فهذان النوعان اتفقت حملة الشريعة على أنهما ليسا بواقع، وأنه لا يجوز التكليف بهما.

والثاني: ما لا يقدر عليه، لا لاستحالته، ولا للعجز عنه، لكن لتركه والاشتغال بضده مثل تكليف الكافر بالإيمان في حالة كفره، وهذا هو النوع الذي وقع فيه النزاع بين طوائف الأمة⁴.

وقد ذهب جمهور الأشاعرة إلى جواز التكليف بما لا يطاق، منهم إمام الحرمين الجويني، والغزالي، والآمدي، وغيرهم.

وجوز الإمام الجويني في الإرشاد تكليف ما لا يطاق وإن كان من قبيل الضدين⁵.

¹ - مكمل إكمال إكمال المعلم: 213/1.

² - صحيح البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (ومن أحيأها) المائدة: 32، رقم: 6874.

³ - مكمل إكمال الإكمال: 213/1.

⁴ - ينظر: الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي: 89. الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة للأصبهاني: 128/2 - 129.

⁵ - الإرشاد للجويني: 203.

وجوز الإمام الغزالي تكليف ما لا يطاق، قال: "ندعي أنه يجوز لله تعالى أن لا يكلف عباده، وأنه يجوز أن يكلفهم ما لا يطاق"¹.

ونص الإيجي على أن الأشاعرة يجوزون التكليف بما لا يطاق، قال: "فهذا، أي التكليف بما لا يطاق عادة نجوزه نحن، وإن لم يقع بالاستقراء، وتمنعه المعتزلة، لكونه قبيحا عندهم..²". وقال أيضا: "تكليف ما لا يطاق جائز عندنا لما قدمنا آنفا من أنه لا يجب عليه شيء، إذ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه"³.

وقد سار الإمام السنوسي رحمه الله على وفاق مرجعيته الأشعرية التي يصدر منها في تقريراته العقدية، فنص على صحة التكليف بما لا يطاق وعلى جواز وقوعه. فعند شرحه لحديث عائشة الذي ورد فيه قول الملك للنبي صلى الله عليه وسلم: (اقرأ)، قال: ما أن بقارئ⁴، قال: "فيه حجة للأشعري في صحة تكليف ما لا يطاق ووقوعه"⁵.

ثانيا - هل يجب على الله شيء؟

وقع الخلاف في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: أنه يجب على الله فعل الأصلاح، وهو قول المعتزلة، وقد قاس هؤلاء أفعال الله بأفعال خلقه، فأوجبوا على الله فعل الأصلاح بما عاهدوه من فعل الإنسان، وأوجبوا عليه تعالى الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وسموا ذلك عدلا⁶.

¹ - الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي: 89.

² - المواقف للإيجي: 293/3.

³ - نفسه: 290/3.

⁴ - صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم: 3.

⁵ - مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي: 276/1.

⁶ - ينظر: "الكشاف للزمخشري: 55/2. "نهاية الإقدام في علم الكلام" للشهرستاني: 370.

القول الثاني: أنه لا يجب على الله تعالى فعل الأصلاح، بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد. وهذا هو قول جماهير المسلمين¹.

وقد نص السنوسي رحمه الله في "المكمل" على أن الله تعالى لا يجب عليه شيء، فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وتأول رحمه الله الوجوب الوارد في بعض النصوص الشرعية على الوجوب الشرعي لا العقلي. قال رحمه الله تعالى: "قوله: (فوجب أجرنا على الله)²، أي: شرعا بوعده سبحانه وتعالى الصادق تفضلا منه جل وعز إذ لا يستحق أحد عليه شيئا عقلا كما تقوله المعتزلة وفساد مذهبهم مقرر في علم الكلام"³.

خاتمة:

يمكن إجمال أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث، فيما يلي:

- أن الإمام السنوسي من أعلام الأمة المبرزين، الذين كان لهم دور بارز في نشر المذهب الأشعري في ربوع الغرب الإسلامي، كما كان له دور في الدفاع عن حياض العقيدة الإسلامية الصحيحة.
 - أن الشروح التي ألفت على رسائل السنوسي ومصنفاته، تبين مكانة هذا العلم الشامخ، وقيمة ما زبرته يده في مختلف العلوم والفنون.
 - اعتنى الإمام السنوسي بتوجيه الأحاديث العقدية التي يدل ظاهرها على مخالفة قاعدة كلية من قواعد الشرع الحنيف.
 - أن الإمام السنوسي رحمه الله كان يصدر في تقريراته العقدية عن مرجعية أشعرية خالصة، فقد تبين لنا من خلال المسائل التي عرضنا لها في هذا البحث أنه يوافق جمهور الأشاعرة في مختلف مسائل الاعتقاد.
- والحمد لله رب العالمين

¹ - ينظر: "الاقتصاد في الاعتقاد" للغزالي: 163. "الغنية في أصول الدين" لأبي سعيد عبد الرحمان بن محمود: 139.

² - صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة أحد، رقم: 4047.

³ - مكمل إكمال المعلم للسنوسي: 78/3.

المصادر والمراجع:

- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين الجويني، تحقيق أسعد تميم، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى: 1405 هـ، 1985 م.
- أصول السنة" للحميدي، دراسة وتحقيق مشعل محمد الحدادي، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الأولى: 1417 هـ - 1997 م.
- أعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط، 1399 هـ، 1979 م.
- الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، مايو 2002 م.
- الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، وضع حواشيه عبد الله محمد الخليلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1424 هـ - 2004 م.
- إكمال إكمال المعلم للأبي، مكتبة طبرية، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم المديوني التلمساني، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية: 1326 هـ - 1908 م
- تعريف الخلف برجال السلف للديسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثانية: 1405 هـ - 1985 م.
- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى: 1405 هـ.
- الحجة في بيان المحجة للأصبهاني، تحقيق ودراسة محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى: 1411 هـ - 1990 م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- درة المجال في أسماء الرجال لابن القاضي، تحقيق محمد الأحمد أبو النور، المكتبة العتيقة، تونس، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى: 1971 م.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه أبو يعقوب نشأت بن كمال المصري، قدم له الشيخ مصطفى العدوي، المكتبة الإسلامية، القاهرة - مصر، الطبعة الثانية: 1425 هـ - 2005 م.
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان الطبعة الثانية: 1399 هـ - 1379 م.
- صحيح البخاري، حققه محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: 1422 هـ.
- صحيح مسلم، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لشمس الدين السخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.
- طبقات الحضيكي، تحقيق أحمد بومزكو، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الأولى: 2006.
- العقيدة النظامية لإمام الحرمين الجويني، تحقيق محمد الزبيدي، دار سبيل الرشاد، الطبعة الأولى: 1424 هـ - 2003 م.
- غاية المرام إلى علم الكلام للآمدي، دار الكتب العلمية، تحقيق أحمد فريد المزبيدي، الطبعة الثانية: 1424 هـ - 2004 م.
- الغنية في أصول الدين" لأبي سعيد عبد الرحمان بن محمود، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م: 139.
- فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات لعبد الحي الكتاني، حققه إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية: 1982.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 55/2.
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباح، لأحمد بابا التنبكي، حققه محمد مطيع، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، الطبعة الأولى: 2000م.
- الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية" للكفوي، تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419 هـ - 1998م.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، الطبعة الثالثة: 1414 هـ.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرّة المضوية في عقد الفرقة المرضية للشيخ محمد بن أحمد السفاريني، منشورات مؤسسة الخافقين ومكبتها، دمشق، الطبعة الثانية: 1402 هـ - 1982م.
- المسالك في شرح موطأ مالك للقاضي أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى: 1428 هـ - 2007م.
- معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، الطبعة الثانية: 1400 هـ.
- معجم المؤلفين لكحالة، مكتبة المثنى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- مكمل إكمال المعلم للسنوسي، مكتبة طبرية، الرياض، المملكة العربية السعودية، بدون تاريخ.
- المواقف لعضد الدين الإيجي، حققه عبد الرحمن عميرة، دار الجليل، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى: 1417 هـ - 1997 م.
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

- نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني، تحقيق ألفرد جيوم، مكتبة الثقافة الدينية.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الأولى: 1989 م.